

مقدمة عامة

ورثت الكنيسة القبطية تراثاً ضخماً من القوانين، سواء باليونانية أو بالقبطية، وذلك على مدى القرون الأولى من تاريخها. فقد شهدت الفترة من القرن الثالث وحتى منتصف الخامس للميلاد، قوانين كنسية، كان من أبرزها قوانين المجامع المسكونية والمكائبة، التي تعترف بها الكنيسة القبطية. ومع أواخر القرن الخامس وعلى امتداد السادس للميلاد، دُوِّنت قوانين الرُّسل بحسب تقليد الكنيسة القبطية، وبعدها قوانين بعض آباء الكنيسة، مثل قوانين البابا أثناسيوس بطريرك الإسكندرية، وقوانين هيبوليتس، وقوانين القديس باسيليوس الكبير^(١)، وغيرها من القوانين المصرية المنشأ.

ثم كان القرن السابع الميلادي، ودخول العرب إلى البلاد، فكانت فترة قاسية، شحَّ فيها الأدب الليتورجي، والأدب القانوني، على حد سواء، إن لم يكن قد صار معدومين.

ومع حلول القرن العاشر، وحتى منتصف القرن الثالث عشر للميلاد، كانت فترة حكم الفاطميين لمصر، ومن بعدهم الأيوبيين. وهي فترة -

١- والتي يُظنُّ أنها قوانين مصرية، منسوبة إلى القديس باسيليوس الكبير لتنال شهرتها. انظر للمؤلف كتاب: "مصرية قوانين القديس باسيليوس الكبير".

ومعظم هذه القوانين الأبائية في أصلها القديم، هي رسائل إما طويلة أو قصيرة، ومدونة باللغة اليونانية في الكنيسة الشرقية. وفي كنيسة مصر تُرجمت بعض هذه الرسائل لاحقاً إلى اللغة القبطية الصعيدية، ومنها إلى اللغة القبطية البحرينية، ثم أخيراً إلى اللغة العربية بعد أن تم تقسيمها إلى قوانين.

قياساً بغيرها من الفترات، وباستثناء فترة ولاية الحاكم بأمر الله (٩٩٦-١٠٢١م)، والله منه براء - تُعتبر فترة ازدهار الفنون والآداب في البلاد، وهو ما انعكس بدوره على الكنيسة أيضاً.

فبعد انتهاء ولاية الحاكم بأمر الله، وما جرَّه على الكنيسة من ويلات، ولاسيما حرقه لمئات المخطوطات القبطية، وهي خسارة لا يمكن تعويضها، كان على الكنيسة أن تتجه إلى تعريب تراثها الضخم السدي ورثته من القوانين في نصوصها اليونانية والقبطية، بلغة يفهمها الإكليروس والشعب، بعد أن توارت اللغة اليونانية وضاعت، ولحقتها اللغة القبطية أيضاً بعد قليل، لتحل اللغة العربية محلها. أي أن ترجمة قوانين الكنيسة القبطية إلى اللغة العربية، قد بدأ مع بداية القرن الحادي عشر.

وكانت الغاية من هذه القوانين، التي وُضعت في هذه الفترة، هي ملممة شمل الكنيسة مرةً أخرى، وتذكير الأقباط بما كانت عليه كنيستهم من عوائد وطقوس وممارسات، قبل موجة الاضطهاد التي تعرَّضت لها آنذاك، والظروف القاسية التي جازها.

ولقد نجح الآباء والعلماء الأقباط الذين اضطلَّعوا بتعريب القوانين، واحداً من أسلوبيين؛ الأول هو ترتيب هذه القوانين ترتيباً موضوعياً، والثاني هو ترتيبها ترتيباً زمنياً. فظهرت الموسوعات القانونية، والتي صارت تُعرف باسم "نوموكانون"^(٢) Nomocanon أو باسمها العربي "مجموع قوانين".

٢- كلمة "نوموكانون" هي كلمة معربة عن اليونانية وهي من مقطعين أو كلمتين؛ الأولى: νόμος (نوموس)، للدلالة على قوانين الدولة. والكلمة الثانية: κανών (كانون)، للدلالة على قوانين الكنيسة. ومن هنا فإن اصطلاح "نوموكانون" Nomocanon يُطلق على أية موسوعة قانونية تضم قوانين الدولة

فصارت لدينا الموسوعات القانونية المرتبة ترتيباً موضوعياً. وهي إعادة تنظيم هذا الكم الكبير من القوانين، ووضع القوانين المتفرقة هنا وهناك، والتي تخدم موضوعاً واحداً، ووضعها إلى جوار بعضها، أو صياغتها صياغة جديدة، تربطها ببعضها البعض، لكي تلائم المستجدات التي ظهرت في الكنيسة. إذ أتضح وجود تكرار في بعض نصوصها، مع صعوبة في تطبيق بعضها الآخر، وذلك نظراً لطول الفترة التي وضعت فيها هذه القوانين من جهة، وتغير الظروف التي أوجبت وضع مثل هذه القوانين من جهة أخرى. ووضعت كل مجموعة منها في باب مستقل بما، حيث يشمل الموضوع الواحد جميع القوانين الخاصة به، أياً كان نوعها.

ويندرج تحت هذا النوع من التوموكانون:

- (١) "مجموع قوانين البابا غبريال بن ثريك". والمؤلف قبل سنة ١١٣١م.
- (٢) "كامل القوانين" للأبنا ميخائيل الدمياطي^(٣). والمؤلف سنة ١١٨٨م.
- (٣) "المجموع الصّفوي" للصفّي بن العسّال، في نسخته (أ): ١٢٣٦م، (ب): ١٢٣٨م.

وهنا تظهر لنا أهمية "مجموع قوانين البابا غبريال بن ثريك"، باعتباره أوّل مجموع قوانين تعرفه الكنيسة القبطية، برغم أنه لم يرق إلى دقة التّبويب والتقسيم الذي نراه في "المجموع الصّفوي".

وقوانين الكنيسة معاً.

^٣ - هو مطران دمياط، وعاش في النّصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي.

O.H.E. Burmester, *The Canons of Christodulos, Patriarch of Alexandria*, Le Muséon t. XLV (1932), p. 83, n. 1.

ويرى العالم كوكان Coquin أن تعريف "مجموع قوانين" ينطبق فقط على هذه الثلاث مجموعات السّابق ذكرها. فيقول ما نصّه: "إنّ 'مجموع قوانين' ينبغي أن يُطلق فقط على المجموعات القانونية العامة التي تورّد نصوص قوانين المجامع والآباء، بعد تصنيفها في أبواب، طبقاً للموضوعات التي تعالجها هذه القوانين"^(٤).

وأما الموسوعات القانونية المرتبة ترتيباً زمنياً، فهي تورّد في البداية جميع القوانين المنسوبة للرّسل بأنواعها، ثم القوانين المنسوبة للمجامع المسكونية والمكائنة بأنواعها، ثم القوانين المنسوبة لآباء الكنيسة على مدى العصور المختلفة، وأخيراً قوانين الملوك والسّلطات الزّمنية المسيحية. ولكنّها لا تُبوّب هذه القوانين في أبواب، طبقاً لكلّ موضوع على حدة.

وهنا يتّضح لنا أنّ كوكان Coquin - وبحسب رأيه السّابق ذكره مباشرة - لا يرى أنّ مصطلح "التوموكانون" يمكن أن ينطبق على مثل هذه المجموعات القانونية المرتبة ترتيباً زمنياً. ولكن برغم ذلك، فهي في النّهاية موسوعات قانونية، لأنّها جمعت كلّ شاردة وواردة من القوانين.

ويندرج تحت هذا النوع من الموسوعات القانونية^(٥):

(١) **مجموعة قوانين برلين**: وجامعها مجهول الاسم. وقد وصلت إلينا هذه الموسوعة في مخطوط وحيد محفوظ في المكتبة الملكية ببرلين The Royal

4- Coquin, R.G., *Les Canons d'Hippolyte*, Patrologia orientalis (P.O.), tome 31, fascicule 2, Paris, 1966, p.279.

5- Riedel, W.E., & Crum, W.E., *The Canons of Athanasius of Alexandria*, (Text and Translation Society), London, 1904, p. x.

وقد أُعيد طبع هذا الكتاب مرّة أخرى في مطبعة فيلو Philo بأامستردام Amsterdam في هولندا سنة ١٩٧٣م.

Library at Berlin تحت رقم (١٠١٨١ عربي). وهو مؤرّخ بتاريخ ٨ أُمشير ١٠٥٥ شهداء/ ٢١ رجب ٧٣٩ هجرية. (أي ١٣٣٨ ميلادية).

وهذه المجموعة تجمع أولاً القوانين المنسوبة للرُّسل بأنواعها، ثم القوانين المنسوبة للمجامع الكنسية بأنواعها، ثم قوانين آباء الكنيسة، ثم قوانين الملوك، ثم قوانين بطارقة الكنيسة القبطية في العصور المتأخرة، وآخر واحد مذكور منهم هو البابا كيرلس بن لقلس (١٢٣٥-١٢٤٣م). وهي من أقدم وأدق الموسوعات القانونية^(٦).

(٢) **مجموعة قوانين مقاره الرّاهب:** وهو راهب كاهن من دير القديس يوحنا القصير في بداية القرن الرابع عشر، استخراج كافة محتويات موسوعته القانونية هذه من عدد كبير من المخطوطات التي وجدها إمّا في أديرة الصّحراء أو في كنائس القاهرة. ومحتوياتها تشبه محتويات المجموعة السابقة. وهو مخطوط ضخيم، توجد منه أحد عشر نسخة مخطوطة^(٧)، بعضها كامل والبعض الآخر جزئي. ومن أشهرها المخطوط رقم (٢٥١ عربي)، وتاريخ نساخته ١٣٥٣م، والمخطوط بالكنيسة الأهلية بباريس^(٨). وفي نهايته يقول النّاسخ (بنصّه):

”هذا مما اهتم به الاب القس الجليل المكرم بطرس بدير ستنا السيده

٦- وهنا تجدر الإشارة إلى أن مخطوط رقم (٢٥٢). مكتبة دير القديس أنبا مقار، والذي يعود تاريخه إلى سنة ١٥٤٠م، هو صورة طبق الأصل من مخطوط برلين، إذ قد نقل كلاهما من مصدر واحد، فنفس الأخطاء اللغوية واحدة، ونفس عناوين القوانين واحدة. وحتى ما سقط منها سهواً، هو واحد في كليهما.

٧- من بينها: مخطوط رقم (١٥٠ عربي) مكتبة الفاتيكان، من القرن الرابع عشر. ومخطوط رقم (٢٥٢ عربي) بالكنيسة الأهلية بباريس، لسنة ١٦٦٤م. ومخطوط رقم (٦٣٤ عربي) مكتبة الفاتيكان، من القرن الثامن عشر.

٨- لدي صورة طبق الأصل من هذا المخطوط.

المعروف بالبتنوني من تعبه لنفسه خاصه لبتلوا فيه ... وكان الفراغ من نسخ هذا الكتاب المقدس في اليوم الثاني من شهر بابه سنة الف وتسعه وستين للشهدا الاطهار^(٩) رزقنا الله بركاتهم امين“.

وتعود أهمية دراسة ”نوموكانون“ مقاره الرّاهب إلى أنه لم يترك شاردة أو واردة في محيط القوانين الكنسية أو المدنية المسيحية المعروفة في زمانه - سواء كانت صحيحة أو زائفة - إلا وأدرجها في موسوعته القانونية التي شملت ٥٤ كتاباً. ولذلك نجد قدراً كبيراً من التكرار بين المجموعات المتشابهة التي جمعها مقاره الرّاهب في هذه الموسوعة.

(٣) **مجموعة قوانين باريس مجهولة المؤلف:** وهي محفوظة في مخطوطين رقم (٢٣٨، ٢٣٩ عربي) بالكنيسة الأهلية بباريس. ومحتوياتها تشبه محتويات المجموعتين السابقتين.

(٤) **مجموعة قوانين السّمعاني:** وضعها يوسف السّمعاني J.S. Assemani ابن عم إلياس السّمعاني الذي كان أميناً لمكتبة الفاتيكان، معتمداً فيها على ”نوموكانون“ مقاره الرّاهب.

وكان يوسف السّمعاني قد زار مصر في سنة ١٧١٥م، وعرج على أديرتها، وجمع كثيراً من المخطوطات القيّمة، ولاسيما من مكتبة دير القديس أنبا مقار، وعاد بها إلى مكتبة الفاتيكان بروما.

إنّ الترجمة العربية لثراث الكنيسة، ولاسيما الثراث القانوني منها،

٩- أي أنّ هذه النسخة من المخطوط تعود إلى منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، وبالتحديد سنة ١٣٥٣م. وهي طبق الأصل من النسخة الأصلية التي كتبها الرّاهب مقاره قبل هذا التاريخ المذكور بفترة بسيطة.

والذي نحن بصدد الحديث عنه الآن، هي ذات أهمية بالغة، بعد أن فقدت بعض الأصول التي تُرجمت منها، أو لم يتبق لنا منها سوى أجزاء أو شذرات قليلة. ومن هنا اهتم العلماء بجمع هذه الترجمات العربية للنصوص الآبائية، ولاسيما القديمة منها، وعملوا لها فهراس دقيقة لحصرها في كافة مكتبات العالم.

وهنا نذكر - بكل الشكر - الأب جورج جراف G. Graf وهو عالم وكاهن ألماني، عمل أستاذاً في جامعة ميونخ München بألمانيا. إذ كرّس جُل حياته لدراسة المخطوطات العربية المسيحية، وعمل فهراس لها ولتحتوياتها. ومن أجل هذا الهدف، ترك التدريس في الجامعة، وترك العمل الرعائي أيضاً، وعكف على دراسة المخطوطات العربية في مكتبات الفاتيكان وباريس ولندن، ثم سافر إلى معظم بلاد الشرق الأوسط لدراسة مخطوطاتها. وجاء إلى مصر، وعمل فهرس لمخطوطات مكتبة المتحف القبطي، ومكتبة البطريركية القبطية بالقاهرة... الخ، وجمع نتيجة أبحاثه في خمسة مجلدات ضخمة باللغة الألمانية، ونشرها سنة ١٩٤٤م^(١٠).

ومن بين ما يذكره الأب جورج جراف G. Graf في مؤلفه السابق ذكره، موسوعات "النوموكانون" Nomocanon التي وجدها منتشرة في مكتبات العالم. والسابق الإشارة إليها.

وإلى جانب الموسوعات القانونية بنوعها، والسابق ذكرها، شهدت العصور الوسطى قوانين مهمة أخرى، لا سيما قوانين بطاركة الكنيسة

10- G. Graf, *Geschichte der christlichen arabischen Literatur* I-V, Città del Vaticano, 1944-1953.

لوصف هذه المجلدات الخمسة، انظر للمؤلف: الباب الأول من كتاب "قوانين البابا أناسيوس بطريرك الإسكندرية".

القبطية في هذا الزمان.

وعلى ذلك، فنخلص إلى القول بأن أهم القوانين الكنسية التي دُوّنت باللغة العربية في العصور الوسطى في كنيسة مصر، وبحسب ترتيبها التاريخي، هي كما يلي:

(١) "مختصر أبي صالح يوانس" الملقب بالسديد بن نانا. والمؤلف قبل سنة ١٠٢٨م^(١١).

(٢) "قوانين البابا خريستوذولوس" (١٠٤٧-١٠٧٧م).

(٣) "قوانين البابا كيرلس الثاني" (١٠٧٨-١٠٩٢م).

(٤) "قوانين البابا غريال بن ثريك" (١١٣١-١١٤٥م). ومن بينها "مجموع القوانين" الخاص به، والمؤلف قبل سنة ١١٣١م، والسابق الإشارة إليه.

١١- يُعتبر هذا المختصر من بواكير قوانين الكنيسة القبطية، التي تم تأليفها باللغة العربية. ونصه موجود في مخطوط رقم (١٥٠ عربي) بالمكتبة الأهلية بباريس، ويحوي ثماني ورقات فقط (١١٤ وحه-١٢١ ظهر). ويرى كل من جورج جراف G. Graf وكوكان Coquin أنه لا يُعتبر "مجموع قوانين"، بل مختصر قوانين.

ويذكر جورج جراف G. Graf أن هذا المختصر ليس ترجمة لأي مجموعة قانونية كبيرة أو صغيرة، بل هو مأخوذ فقط عن مصادر قبطية أو رومية (يونانية). وإن كان مقاره الزاهب عندما ضم هذه القوانين إلى مجموعته، قد اعتمد على نسخة مؤرخة بتاريخ ١٨ أكتوبر سنة ١٠٢٨م، فإنها ليست النسخة الأصل، وإنما مجرد نسخة عن أصل هذا المختصر. وعليه فهذا المختصر مؤلف قبل هذه الفترة، ويرجع على أقل تقدير إلى بداية القرن الحادي عشر.

G. Graf, *op. cit.*, II, p. 320.

انظر: الأب أنطونيوس عزيز مينا، مجموع قوانين غريال بن ثريك، الجزء الأول، سلسلة التراث العربي المسيحي (١٢)، بيروت، ١٩٩٣، ص ٧، ١٣١، ١٣٣.

(٥) "كامل القوانين" للأبنا ميخائيل مطران دمياط^(١٢). والسذي تمّ تأليفه سنة ١١٨٨م.

(٦) "المجموع الصّفوي" للصّفّي بن العسّال، في روايته (أ): ١٢٣٦م، ب: ١٢٣٨م.

(٧) "قوانين البابا كيرلس الثالث بن لقلق" (١٢٣٥-١٢٤٣م).

(٨) "كتاب الطّب الرّوحاني في علاج الدّاء النّفساني" المنسوب إلى ميخائيل أسقف أتريب ومليج^(١٣)، منتصف القرن ١٣

(٩) "كتاب البرهان في القوانين المكّملة والفرائض المهمّلة" لأبي شاكر بطرس بن الرّاهب^(١٤)، والمؤلّف سنة ١٢٧٠/١٢٧١م.

(١٠) "مجموع قوانين مقاره الرّاهب"، وهي من القرن الرّابع عشر.

(١١) "جمع القوانين المهمّلة من القوانين المكّملة" لفرج الله الأحميمي (أقدم مخطوط ١٣٥٧م).

(١٢) "مجموع قوانين يوسف السّمعاني"، التي تمّ وضعها في القرن الثّامن عشر الميلادي.

(١٣) "مجموعات قوانين مجهولة المؤلّف"، ويضمّها مخطوطات، أهمّها مخطوط برلين رقم (١٠١٨١، عربي) لسنة ١٣٣٨ ميلاديّة.

١٢- والنّص محفوظ في مخطوط رقم (٤٧٢٨ عربي) بالمكتبة الأهلّية بباريس، وتاريخ نساخته سنة ١٨٨٦م.

انظر: الأب أنطونيوس عزيز مينا، مرجع سابق، ص ١٠٦

١٣- الأب أنطونيوس عزيز مينا، مرجع سابق، ص ٨

١٤- ونص هذه القوانين موجود في مخطوط رقم (١٠٤ عربي) بمكتبة الفاتيكان، لسنة ١٢٨٢م.

انظر: الأب أنطونيوس عزيز مينا، مرجع سابق، ص ٨، ١٠٤

ومخطوط دير أنبا مقار رقم (٢ق) لسنة ١٥٤٠م. ومخطوطان بمكتبة باريس، رقمهما (٢٣٨، ٢٣٩ عربي). ومخطوطان رقما (٥ق)/ (سميكه ٥٧٥) من القرن الثّالث عشر، (٦ق)/ (سميكه ٥٧٦) لسنة ١٧٩٨م، بمكتبة البطريركيّة بالقاهرة.

والكتاب الذي بين يديك، قارئ العزيز، يتحدّث عن "قوانين بطاركة الكنيسة القبطيّة في العصور الوسطى" على وجه الخصوص. وهي القوانين التي وُضعت على مدى قرنين من الزّمان، وذلك في الفترة الواقعة بين منتصف القرن الحادي عشر ومنتصف القرن الثّالث عشر للميلاد.

فلقد وضع أربعة بطاركة من الكنيسة القبطيّة هذه القوانين، كما عاصرها عشرة منهم.

والجدول التّالي يورد أسماء الآباء البطاركة الذين عاصروا هذه الفترة. مع ملاحظة أنّ النّجمة بين القوسين (*) تشير إلى اسم البطريرك صاحب القوانين المعروفة باسمه.

اسم البطريرك	ترتيبه	فترة بطريركيّته
البابا شنوده الثّاني	٦٥	١٠٣٢ - ١٠٤٦م
البابا خريستوذولوس (*) (عبد المسيح)	٦٦	١٠٤٧ - ١٠٧٧م
البابا كيرلس الثّاني (*)	٦٧	١٠٧٨ - ١٠٩٢م
البابا حائيل الرّابع	٦٨	١٠٩٢ - ١١٠٢م
البابا مكاريوس الثّاني	٦٩	١١٠٢ - ١١٢٨م
البابا غبريال الثّاني (ابن ثريّك) (*)	٧٠	١١٣١ - ١١٤٥م
البابا حائيل الخامس (ابن الدّينشتيري)	٧١	١١٤٥ - ١١٤٦م
البابا يؤانس الخامس	٧٢	١١٤٦ - ١١٦٦م
البابا مرقس الثّالث (ابن زرعه)	٧٣	١١٦٦ - ١١٨٩م

ببركة شفاعة العذراء كلَّ حين، والدة الإله القديسة مريم. والقديس يوحنا المعمدان. وصلوات سادتي الآباء الرُّسُل القديسين. وكلَّ الشُّهداء والصِّدِّيقين. وصلوات قداسة البابا شنودة الثالث بابا الإسكندرية وبطريك الكرازة المرقسية، وكلَّ آبائي المطارنة والأساقفة والقمامسة والقسوس. وإخوتي الشَّمامسة والرُّهبان. وكلَّ طغمة العلمانيين المباركين. ولإلهنا المجد في كنيسته إلى آباد الدُّهور كلِّها آمين.



صعود إبلياً إلى السَّماء. حفر على الخشب يزُين مقصورة القديسين يوحنا المعمدان واليشع الثَّبي بكنيسة أنبا مقار الكبير بديره ببرية شيهيت

اسم البطريك	ترتيبه	فترة بطريركيته
البابا يوانس السَّادس (ابن أبي غالب)	٧٤	١١٨٩ - ١٢١٦ م
البابا كيرلس الثالث (ابن لقلق) ^(*)	٧٥	١٢٣٥ - ١٢٤٣ م

وهناك الكثير من القوانين الجديدة والمهمة التي ورد ذكرها في هذه القوانين، ولاسيما قوانين البطاركة خريستوذولوس، وغريال الثاني ابن ثريك، وكيرلس الثالث ابن لقلق^(١٥).

فلقد كان من الطَّبيعي، بل ومن الضَّروري في آن معاً، أن تُضاف قوانين جديدة تحسم كثيراً من المسائل الكنسية، والممارسات الطَّقسية أو الليتورجية، التي نشأت أو استجدت مع توالي مرور القرون، والتي لم تتطرق القوانين الكنسية القديمة إلى علاجها.

ولقد دوَّن مقاره الرَّاهب قوانين بطاركة الكنيسة القبطية السابق ذكرهم، في أربعة عشر كتاباً - وهي الكُتب من رقم ٤٤ إلى رقم ٥٧ - من مجموع ٥٧ كتاباً والتي تضمُّها هذه الموسوعة القانونيّة.

أملاً أن يطَّلِع القارئ العزيز ليس على هذه القوانين فحسب - كمجرّد قوانين - بل على ما تحويه من تعليمات طقسية وليتورجية تلقي الضَّوء على حياة الكنيسة في هذه الفترة من تاريخها، وهو التاريخ الموعَّل في القدم منذ زمن آباءنا الرُّسُل القديسين، والممتد إلى مجيء الرُّب الثاني، حين يأتي ليأخذ كنيسته المحبوبة إلى السَّماء، بعد أن تكون قد أكملت سعيها، وأوصلت رسالة الخلاص إلى كلِّ أرجاء الأرض.

15. O.H.E. Burmester, *The Canons of Christodulos, Patriarch of Alexandria*, Le Muséon t. XLV (1932), p. 71.

